مُقَدِّمَة

الحمد لله المبديء المعيد ، الفعال لما يريد ، ذي العرش المجيد ، والبطش الشديد ، الهادي صفوة العبيد ، إلى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد، بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، لم يترك الخلق سدى وهملاً، بل خلق الخلق ليعبدوه، وبالإلوهية يفردوه، جعل لهم من الخير منهجاً، وأخذ عليهم قبل ذلك ميثاقاً وعهدا، فأخرج فيما قد مضى من ظهر آدم عليه السلام كالذر ذريته، وأخذ العهد عليهم أنه لا رب معبود بحق غيره ، قال جل جلاله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾(١).

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله بالحق والكتاب المبين ، ليذكر عباده بذا العهد الأول ، وينذروهم ويبشروهم كي لا يكون حجة للناس على الله جل جلاله ، فمن يصدقهم بلا شقاق ، فقد وفى بذلك الميثاق ، وهو ناج من عذاب النار ، ووارث عقبى الدار ، عن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:(أخذ الله الميثاق من ظهر آدم فأخرج من صلبه ذرية ذرأها فنثرهم نثراً بين يديه كالذر ثم كلمهم فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾(٢) . وعنه أيضاً عن رسول الله ﷺ قال: (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ((ونعمان قريب

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ . ١٧٣ . ١٧٤ .

(٢) المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ، دار النشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت ، سنة النشر: 1401هـ . 1990م، قال الحاكم في المستدرك : هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ، ٨٠/١.

من عرفة ذكره ابن قتيبة [١])) فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً، ثم تلا الآية السابقة)[٢] .

أما بعد : ففي ضوء ما ورد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة نحاول وبإذن الله ﷻ توضيح هذه القضية الإعتقادية المهمة والتي كثرت فيها الآراء عند السلف والخلف ، ونحاول تصوير هذا المشهد الرائع[٣]، مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب البعيد ، المستكنة في آدم عليه السلام ، أو في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود ، تؤخذ في قبضة الخالق العظيم ﷻ فيسألها ألست بربكم ؟ فتعترف له سبحانه بالربوبية ؛ وتشهد له سبحانه بالوحدانية ؛ وهي منثورة كالذر ؛ إنه مشهد كوني رائع باهر لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة ، وتعجز ريشة الرسام أن ترسم لوحته ، وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتصوره الخيال البشري تلك الذرية التي لا تحصى وهي تُجمع وتُقبض وهي تُسأل بما رُكب فيها من الخصائص المخزونة التي أودعها إياها الخالق المبدع ﷻ ، وهي تستجيب استجابة العقلاء فتعترف وتقر وتشهد ؛ ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب ، وإن الإنسان ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد وهو يتمثل الذر السابح ، وفي كل خلية حياة ، وفي كل خلية استعداد كامن، وفي كل خلية كائن

(١) عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الكاتب الدينوري وقيل المروزي سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه ومحمد بن زياد الزيادي وأبى الخطاب زياد بن يحيى الحساني وأبى حاتم السجستاني روى عنه ابنه احمد وعبيد الله بن عبد الرحمن السكري وإبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ وعبيد الله بن احمد بن بكير التميمي وعبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي وكان ثقة دينا فاضلا وهو صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة منها غريب القرآن وغريب الحديث ومشكل القرآن ومشكل الحديث وادب الكتاب وعيون الاخبار وكتاب المعارف وغير ذلك سكن بن قتيبة بغداد وروى فيها كتبه إلى حين وفاته وقيل ان أباه مروزي واما هو فمولده بغداد واقام بالدينور مدة فنسب إليها ، تاريخ بغداد، تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت– ج١٠: ص١٧٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ، ٨٠/١ ، وكذلك مسند الإمام أحمد ، احمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، دار النشر : مؤسسة قرطبة . مصر ، ٢٧٢/١ .

(٣) ينظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق – بيروت ، الطبعة الشرعية الرابعة – ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م ، ١٣٩٢/٣ .

إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول ، ويقطع على نفسه العهد والميثاق قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم .

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية ، قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام ، ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة فإذا العلم يقرر أن العوامل الوراثية (الجينات) التي تحفظ سجل الإنسان وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب . إن هذه العوامل الوراثية التي تحفظ سجل ملايين من البشر وتكمن فيها خصائصهم كلها ، لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب ، كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] فمن خلال هذا البحث نحاول إبراز هذه المسألة المهمة من مسائل العقيدة سائلين المولى ﷻ أن يوفقنا للصواب، وأن يجنبنا الزلل والشطط والخراب ، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، ولهذا جاء البحث متظمناً لأربعة مباحث منتهية بخاتمة لأهم النتائج وبين يديها سطور هذه المقدمة.

أسباب اختيار الموضوع :

إن معرفة العقيدة السليمة ضرورة من ضرورات هذا الدين حتى يستقيم المنهج ، لاسيما ونحن في هذا الوقت العصيب الذي نرى فيه اختلافات كثيرة ، والكل يدعي أنه على الحق ، وإنما هذا الخلاف الهائل حصل لوجود هذا البنيان الركيك الذي بنيَ على ما ينحرف بسيل الأهواء ، وينقلع من أصله لأنه هارٍ ساقط. وجرف العقيدة إذا سقط انهار صاحبه في نار جهنم ، وكل شيء يمكن إصلاحه إلا الأساس في البنيان .

(١) سورة فصلت الآية / ٥٣

وهكذا يقوم أعداء الإسلام الآن لنقض الدين في الصميم وهدم الصرح الإسلامي ليلبسوا على الناس دينهم بأسلوب خبيث ، فربط العقيدة مع التفسير وفهم الآيات على هذا الأساس هو أسلوب جيد لفهم القرآن الكريم على طريقة العلم والدراية لا التنطع وفرض الرأي وعدم القبول بالرأي الآخر.

الصعوبات التي واجهت الباحث :

إذا أردنا أن نحصي الصعوبات في هذا الظرف نكاد أن لا نحصيها ، فإذا كنا في الظروف الاعتيادية نجد صعوبات تواجهنا في البحث والاستقصاء والذهاب إلى المكتبات ، واستخراج العبارات من مصادرها الأم ، و استخدام الحاسوب فإن الكهرباء لا تسعفه لذلك ، كما أنه لا يمكن الاعتماد على الحاسوب كل الاعتماد ، فضلاً عما تقدم فإن الناس ألقت بهمومها علينا وتكاثرت هذه الهموم من القريب والبعيد ، حتى صرنا في حيرة بأي شيء نبدأ ؟ بأحوال الناس أم بأحوال البيت والأهل ؟ أم بالمشاغل الأخرى التي لا تحصى ولا تعد ؟

ومع كل هذه المصاعب وغيرها والتي لا داعي لبسطها فكلنا عايشها ورآها ، فقد استطعنا والحمد لله أن نبحث ونستخرج المعلومات النافعة للموضوع ، وأبداء الرأي فيها وإن كان هذا البحث متواضعاً فإنما يأتي للظرف الحرج الذي نمر به . وبعد اعتكاف طويل واعتزال الناس لبعض الوقت ، استطعنا بفضل الله ﷻ أن نبحث وندقق وننتخب المعلومة النافعة ، حتى خرج البحث على هذه الصورة والحمد لله .

خطة البحث

1. جمعت الآيات الخاصة بالموضوع .
٢. أخذت عدداً من الأحاديث الشريفة الدالة على معاني تلك الآيات ، لأن السنة المطهرة هي بيان لكتاب الله تعالى ، وفعل الرسول ﷺ يحقق المعنى المراد بالآيات الكريمة .
3. نسخت ما كتبه العلماء والمفسرون وأصحاب السنن وغيرهم ما يتضمن هذا المعنى ، ثم قرأتها عدة مرات ، وحاولت استخراج الفكرة المتفق عليها ، وأن

أجعل لها أولويةً في الكتابة، ثم عرجت على المسائل التي اختلفوا فيها، فأهملت قسماً منها لعدم ثبوت أدلة الخلاف ، أو لعدم جدوى ذكرها لاسيما وان موضوع العقيدة ينبغي الاعتماد فيه على الأحاديث المتواترة والصحيحة، والآثار الموثقة ، وكتبت ما هو نافعٌ للموضوع في نظري .

٤. قمت بتحليل عدد من الآيات القرآنية وما يستنتج منها والفائدة الحاصلة جراءها ، وحاولت ربط الماضي بالحاضر حتى يخرج البحث يحمل آثار القدماء ممزوجةً بصبغة المعاصرين ، فالحاضر هو غرس الماضي ، والمستقبل جني الحاضر

وكانت خطة البحث كما يأتي:

١ . المقدمة .

٢ . المبحث الأول : الذر وما ورد فيه

المطلب الأول : معنى الذر

المطلب الثاني : ما ورد في الذر

٣ . المبحث الثاني : أقوال العلماء

٤ . المبحث الثالث : العهد والفطرة

5 . المبحث الرابع : تتمة الموضوع

٦ . الخاتمة والنتائج .

المبحث الأول: الذر وما ورد فيه

المطلب الأول : معنى الذر

أولاً:- الذر لغة

((ذرر : ذرّ الشئ يَذرّره : أخذه بأطراف أصابعه ثم نثره على الشيء ، وذر الشيء يذره إذا بدده ، وذر إذا بدد ، وفي حديث عمر رضي الله عنه ذري أحر لك أي ذري الدقيق في القدر لأعمل لك حريرة[١]، والذر مصدر ذررت وهو أخذك الشيء بأطراف أصابعك تذره ذر الملح المسحوق على الطعام ، وذررت الحب والملح والدواء أذره ذراً : فرقته))[٢] .

ثانياً:- الذر اصطلاحاً

هو عهد الربوبية الذي أخذه الله ﷻ على ذرية آدم عليه السلام في عالم الغيب فأقروا بوحدانيته ﷻ [٣].

المطلب الثاني : ما ورد في الذر

أولاً:- النصوص الشرعية

ركز العلماء في كلامهم حول هذا الموضوع معتمدين على قول الله ﷻ : ـ

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [٤]

وقول الرسول ﷺ عندما سئل عن هذه الآية فقال:(إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَأَخْرَجَ منه ذُرِّيَّةً فقال خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ منه ذُرِّيَّةً فقال خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ) فقال رَجُلٌ

(١) الحريرة : الحسا من السم والدقيق وقيل هو الدقيق الذي يطبخ بلبن ، لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) ، الطبعة الأولى ، دار النشر : صادر بيروت٤/١٨٤

(٢) لسان العرب ، مادة ذرر ٤/٣٠٣

(٣) بعد البحث الطويل لم أجد تعريفاً اصطلاحياً لـ (عالم الذر) وارتأيت أن يكون هذا تعريفاً له .

(٤) سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ . ١٧٣ . ١٧٤ .

يا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قال : فقال رسول اللَّهِ ﷺ:(إِنَّ اللَّهَ إذا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حتى يَمُوتَ على عَمَلٍ من أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وإذا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حتى يَمُوتَ على عَمَلٍ من أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ الله النَّارَ)[١] .

ثانياً:- دلالة النصوص الشرعية

قال الرازي (رحمه الله) [٢]: ((إن ظاهر الآية يدل على إخراج الذرية من ظهور بني آدم وليس فيها ما يدل على أنهم أُخرجوا من صلب آدم ولا يدل على نفيه ، إلا أن الخبر دل عليه فيثبت خروجهم من آدم بالحديث ، ومن بَنيه بالآيةوهولا يطابق سياق الحديث كما لا يخفى)). [٣]

وجمع ابن عاشور (رحمه الله) في تفسيره بين آية العهد وحديث النبي ﷺ الذي يرويه عمر بن الخطاب ﷺ فقال :

((وأخذ العهد على الذرية المخرجين من ظهور بني آدم يقتضي أخذ العهد على الذرية الذين في ظهر آدم بدلالة الفحوى ، وإلا لكان أبناء آدم الأدنون ليسوا مأخوذاً عليهم العهد مع أنهم أولى بأخذ العهد عليهم في ظهر آدم ومما يثبت هذه الدلالة الخبر الذي يرويه عمر بن الخطاب ﷺ. ومحمل الحديث على أنه تصريح بمدلول الفحوى المذكور ، وليس تفسيراً لمنطوق الآية ، وبه صارت الآية دالة على أمرين :

---

(١) سنن الترمذي قال أبو عِيسَى هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت ٢٧٩هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٦/٥.

(٢) هو الإمام فخر الدين حجة الحق محمد بن عمر بن الحسين القرشي الطبري الاصل الرازي المولود كان إماما وقته في العلوم العقلية واحد الأئمة في العلوم الشرعية اشتغل بالعلم عند والده وكان من تلاميذ ولد بالري في العشر الاخير من شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة وتوفي بهرات يوم الأثنين يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة ودفن في جبل قريب من هرات ، ينظر طبقات الفقهاء، تأليف: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق، دار النشر: دار القلم – بيروت، تحقيق: خليل الميس ج١:ص٢٦٣.

(٣) مفاتيح الغيب : أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل ، الشافعي المذهب فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، الطبعة الثالثة، دار النشر: دار إحياء التراث العربي . بيروت ١٠٧/٩ .

الأول : صريح وهو ما أفاده لفظها .

الثاني : مفهوم وهو فحوى الخطاب .

وجاء في الآية أن الله ﷻ أخذ على الذريات العهد بالإقرار بربوبية الله ﷻ ولم يتعرض لذلك بالحديث ، ذكر فيه أن الله ﷻ ميز بين أهل الجنة وأهل النار ولعل الحديث اقتصار على بيان ما سأل السائل فيكون تفسيراً للآية تفسير تكميل لما لم يذكر فيها ، أو كان في الحديث اقتصار من احد رواه على بعض ما سمعه . والأخذ مجاز في الإخراج والانتزاع قال ﷻ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (١)) (٢) .

والراجح : أن القرآن يأتي بمجمل يفصلّه الحديث ، واختصار تدل عليه السنة ، وأن الله تعالى حين مسح ظهر آدم عليه السلام على ما جاء في الحديث فأخرج منه ذريته أمثال الذر فإذا أخذ من جميع أولئك العهد وأشهدهم على أنفسهم معنى ذلك أنه أخذ من بني آدم جميعا من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ونحو هذا قول الله تعالى في كتابه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾(٣) وإنما أراد بقوله تعالى خلقناكم وصورناكم خلقنا آدم عليه السلام وصورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وجاز ذلك لأنه حين خلق آدم خلقنا في صلبه وهيأنا كيف شاء فجعل خلقه لآدم هو خلقه لنا(٤).

(١) سورة الأنعام الآية : ٤٦

(٢) التحرير والتنوير: (المعروف بتفسير ابن عاشور)، محمد الطاهر ابن عاشور ، ط١ ،١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م ، مؤسسة التاريخ العربي –بيروت –لبنان ، ٣٤٥/٨

(٣) سورة الأعراف الآية : ١١

(٤) ينظر مفاتيح الغيب ٢٦/١٤.

المبحث الثاني : أقوال العلماء في بيان كيفية استخراج الذرية

أجمع العلماء على أن الله ﷻ أخذ الميثاق من بني آدم ، ولكنهم اختلفوا فمنهم من قال بأن الله ﷻ استخرج الذرية من صلب أدم ثم أخذ عهد الربوبية عليهم فأقروا بها ، ومنهم من قال إن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من آبائهم ثم أخذ عليهم عهداً بأنه ربهم وخالقهم فأقروا بذلك ، ومنهم من قال أنه استخرج الذرية من ظهر آدم عليه السلام ثم قسمهم إلى قسمين ، قسم للجنة وقسم للنار وبما سنراه من التفصيل .

أولاً: القائلون بأن الله ﷻ استخرج الذرية من صلب أدم ثم أخذ عهد الربوبية عليهم فأقروا بربوبيته ﷻ ، قال بذلك كثير من العلماء منهم سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ فيما يرويه أبو سعيد الخدري ﷺ انه قال : حججنا مع عمر بن الخطاب ﷺ فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم قبله فقال له علي بن أبي طالب ﷺ بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع قال بكتاب الله ، قال وأين ذلك ؟ قال : قال الله ﷻ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[1] خلق الله آدم ومسح على ظهره فأخرج من صلبه ذرية ذرأها فقررهم بأنه الرب وإنهم العبيد واخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك في رق وكان لهذا الحجر عينان ولسان فقال له افتح فاك ففتح فاه فألقمه ذلك الرق وقال اشهد لمن وافاك بالوفاء يوم القيامة وإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع فقال عمر : (أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن)[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٢

(٢) المستدرك ، قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ٨٠/١، وكذلك شعب الإيمان ، أبو بكر احمد بن حسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ،، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول ، الطبعة الأولى ، دار النشر : دار الكتب العلمية . بيروت ، سنة النشر : ١٤٠٠هـ ، ٤٥١/٣ .

وكذلك قال أُبي بن كعب(رحمه الله)[١] : ((جمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق، قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئا وإني سأرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة))[٢] .

وقال ابن حجر(رحمه الله) : ((هذا الميثاق الذي أخذه عليهم في صلب آدم فمن وفى به بعد وجوده في الدنيا فهو المؤمن ومن لم يوف به فهو الكافر))[٣].

وجزم الشوكاني (رحمه الله) بهذا الرأي واستبعد بقية الآراء فقال : ((والمعنى: أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ وموقوفاً على غيره من الصحابة ولا ملجأ للمصير[٤] إلى المجاز))[٥] .

---

(١) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أبو المنذر ويقال أبو الطفيل المدني سيد القراء روى عن النبي صلى الله عليه وسلم روى عنه عمر بن الخطاب وأبو أيوب وأنس بن مالك وسليمان بن صرد وسهل بن سعد وأبو موسى الأشعري وابن عباس وأبو هريرة وجماعة منهم أولاده محمد والطفيل وعبد الله وأرسل عنه الحسن البصري وغيره شهد بدرا والعقبة الثانية وقال عمر بن الخطاب سيد المسلمين أبي بن كعب قال الهيثم بن عدي مات سنة ١٩ وقيل سنة ٣٢ في خلافة عثمان تهذيب التهذيب ١/ ١٦٤ . تهذيب التهذيب تأليف : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، توفي ٨٥٢هـ ، دار النشر: دار الفكر للنشر . بيروت ، سنة النشر : ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م . الطبعة الأولى(١٢ / ٢٦) لأحاديث المختارة ٣٦٤/٣. كذلك مسند أحمد بن حنبل ١٣٥/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن احمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي أبو عبد الله (ت ٦٧١ هـ) ، دار النشر : دار الشعب . القاهرة ، ٣١٦/٧

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، احمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار النشر: دار المعرفة –بيروت، سنة النشر: ١٣٧٩هـ ، ٤٠٣/١١.

(٤) أي لا يصار إلى غير العهد الذي أخذه الله ﷻ من صلب آدم عليه السلام .

(٥) الجامع بين متني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار النشر : دار الفكر ـ بيروت ، ٢٦٣/٢ .

ثانياً: القائلون بأن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من آبائهم ثم أخذ عليهم عهداً بأنه ربهم وخالقهم فأقروا بذلك .

قال الطبري(رحمه الله): ((يقول ﷻ واذكر يا محمد إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض شهاداتهم بذلك وإقرارهم به))[١] .

وقال البيضاوي(رحمه الله) : ((أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرنا بعد قرن و﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿ بَنِي آدَمَ ﴾ بدل البعض وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ﴿قالوا بلى﴾))[٢] .

وذكر الرازي (رحمه الله) أنه ليس بالضرورة أن كل الذرية قد أُخرجت من ظهر آدم ، بل إن كل فرد أُخرجت منه ذريته كما أُخرجت ذرية آدم الصلبية من ظهره عليه السلام ، فيؤخذ منهم العهد وهكذا إلى يوم القيامة فقال : ((ليس المعنى في الحديث أخرج الكل من ظهر آدم بالذات بل أخرج من ظهره أبناءه الصلبية ومن آبائهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة)) [٣] .

وقال ابن أبي العز الحنفي(رحمه الله): ((أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو))[٤].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر (ت ٣١٠هـ)، دار النشر : دار الفكر ـ بيروت ، سنة النشر : ١٤٠٥ هـ . ١١٠/٩ ، وتفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء (ت ٧٧٤هـ) ، دار النشر : دار الفكر ـ بيروت ، سنة النشر : ١٤٠١هـ ، ٢٦٣/٢

(٢) تفسير البيضاوي ، الإمام البيضاوي (ت ٧٩١هـ) ، تحقيق : عبد القادر عرفات العشا حسونة ، دار النشر : دار الفكر للنشر . بيروت ، سنة النشر : ١٤١٦هـ . ١٩٩٦م ، ٧١/٣.

(٣)مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، ١٠٧/٩، وينظر: كذلك تفسير روح المعاني ،(تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)،محمود الآلوسي أبو الفضل(ت ١٢٧٠هـ) ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ١٠٣/٩

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، الطبعة الرابعة ، دار النشر : المكتب الإسلامي ـ بيروت ، سنة النشر: ١٣٩١هـ ، ٢٥٦/١

((وقال ابن عباس ﷺ أيضا اشهد بعضهم على بعض وقيل شهدنا من قول الملائكة وهذا قول مجاهد والضحاك (رحمها الله) وقال السدي(رحمه الله) أيضا هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم والأول أظهر وما عداه احتمال لا دليل عليه .))[١]

وذكر القرطبي(رحمه الله) أن الطفل إذا مات دخل الجنة بسبب هذا العهد فقال: ((من مات صغيراً دخل الجنة لإقراره في الميثاق الأول ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأول))[٢].

وأورد ابن كثير(رحمه الله) في تفسيره أثراً يحقق المعنى نفسه فقال: ((مات ابن للضحاك(رحمه الله) بن مزاحم ابن ستة أيام ، فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فابرز وجهه واحلل عنه عقده فانه مجلس ومسؤول ففعلت به الذي أمر فلما فرغت قلت عم يسأل ابنك من يسأله إياه ؟ قال يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم))[٣] .

وقال القرطبي(رحمه الله) : ((ومعنى أشهدهم على أنفسهم دلهم بخلقه على توحيده لان كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً فقام مقام الإشهاد عليهم والإقرار عنهم كما قال ﷻ في السموات والأرض﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[٤]))[٥] ، وفي معنى الحديث السابق بقوله (مسح) يعني قدر عددهم ، لكن الرازي (رحمه الله) ضعّف أن يكون المسح بمعنى تقدير كمية الذرية فقال: ((وقيل : هو من المساحة بمعنى التقدير كأنه قال: قدر ما في ظهره من الذرية))[٦].

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٢٦٨/١ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣١٨/٧ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ج٢/ص٢٦٣ .
(٤) سورة فصلت الآية ١١ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٣١٤/٧ .
(٦) مفاتيح الغيب ١٠٧/٩ .

ثالثاً : ذهب جماعة من العلماء إلى أن الآيات لا تعني أخذ العهد ، إنما تعني تعيين أهل الجنة وأهل النار واستدلوا بأحاديث كثيرة منها الحديث السالف الذكر الذي يرويه سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وكذلك الحديث الذي رواه سيدنا علي ابن أبي طالب ﷺ حيث قال : كنا مع النبي ﷺ في بَقِيعِ الْغَرْقَدِ[١] في جَنَازَةٍ فقال: ((ما مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا وقد كُتِبَ مَقْعَدُهُ من الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ من النَّارِ فَقَالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ فقال اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ثُمَّ قَرَأَ :﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾[٢]))[٣].

معناه أن من قدرت له السعادة قدرت بسبب فيتيسر له أسبابها وهي الطاعة ، ومن قدرت له الشقاوة والعياذ بالله قدرت بسبب وهو تقاعسه عن مباشرة أسبابها ، وقد يكون سبب بطالته أن يستقر في خاطره أني إن كنت سعيداً فلا أحتاج إلى العمل ، وإن كنت شقيا فلا ينفعني العمل ، أو أن يقول إذا أمرني الشرع بإقامة الصلاة قال لماذا أفعل؟ فإن كنت سعيداً فمصيري إلى السعادة وان كنت شقيا فمصيري إلى الشقاوة فما تنفعني إقامة الصلاة ، وكذلك إذا قيل له يقول يقول الله ولا قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٤] يقول القائل لماذا أمنع نفسي ملذاتها والسعادة والشقاوة مقضيتان قد فرغ منهما ؟ ولهذا كان رد الرسول ﷺ على أصحابه حين قالوا ألا نتكل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

أن للإنسان كسباً هو اختياره فعليه يقع الثواب والعقاب ، فإذا خالف تبين لنا أن الله عز وجل قضى في السابق بأن يخالفه وإنما يعاقبه على خلافه لا على قضائه ، ولهذا يِقُتل القاتل وليس له أن يتعلل بالقدر ، وإنما ردهم الرسول ﷺ عن

---

(١) نوع من شجر الشوك، والغرقدة واحدته ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة (بقيع الغرقدة) لإنه كان فيه غرقد وقطع .لسان العرب ٣/٣٢٥ فصل غرقد .

(٢) سورة الليل الآيا ت : ٥- ١٠

(٣) صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ) ، دار النشر : ابن كثير . اليمامة للنشر . بيروت ، سنة النشر : ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م ، الطبعة الثالثة ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا . ٤/١٨٩٠

(٤) سورة الإسراء الآية : ٣٢

ملاحظة القدر إلى العمل لأن الأمر والنهي حال ظاهر ، والمقدر أمر باطن ، وليس لنا أن نترك ما عرفناه من تكليف مالا نعلمه من المقضى ، وقوله ﷺ (فكل ميسر لما خلق له) إشارة إلى أسباب القدر فانه ونحن مطالبون بمزاولة الأسباب فمن قُضي له بالعلم يسر له طلبه وحبه وفهمه ، ومن حُكم له بالجهل نزع حب العلم من قلبه ، وكذلك من قُضي له بولد يسر له النكاح ، ومن لم يقض له بولد لم ييسر له ، ومن كان سعيدا فإنما يكون سعيدا لأنه يجري عليه أسباب السعادة من العلم والعمل ، وإن لم يتيسر له ذلك ولم يجر عليه فهو أمارة شقاوته والعياذ بالله . وهذا كله ليس له علاقة بأخذ العهد ، وإنما أخذ الميثاق حصل ويحصل لكل نسمة عند ميلادها[١] .

رابعاً: وقيل هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء[٢] ولم تكن عامة لجميع الناس ولو كانت عامة لجميع الناس لتذكروا ذلك العهد ، وهذا رأي ضعيف حيث أنه سُبق بلغة التمريض ولم يلق ترحيباً من العلماء .

خامساً: أنكر المعتزلة اخذ الميثاق وقالوا بأن الأحاديث من جملة الآحاد ، فلا يلزم ترك ظاهر الكتاب بها ، وطعنوا في صحتها بمقدمات عقلية وفلسفية نجملها مع الرد عليها فيما يأتي :

١- إن اخذ الميثاق لا يمكن إلا من العاقل فوجب أن يستذكر الإنسان في هذا العالم ذلك الميثاق إذ لا يجوز للعاقل أن ينسى مثل هذه الواقعة .

وأجيب أن عدم تذكر الخطاب حجة واهية لان تذكر الأرواح لأعمالها الواقعة سابقاً مستحيل لعدم تعلقها بالأبدان .

٢- ((أن البنية شرط لحصول الحياة فكل واحد من تلك الذرات لا يمكن أن يكون عالماً فاهماً عاقلاً إلا إذا حصلت له قدرة من البنية[٣] واللحمية والدموية وإذا كان كذلك فمجموع تلك الأشخاص الذين خرجوا إلى الوجود من أول تخليق آدم إلى

(١) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار النشر: الجفان والجابي – قبرص – ١٤٠٧ – ١٩٨٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي

(٢) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٣١٧/٧ .

(٣) شيء من الهيكل الجسماني المؤلف من اللحم والدم.

آخر قيام القيامة لا تحويهم عرصة الدنيا فكيف يمكن أن يقال إنهم بأسرهم حصلوا دفعة واحدة في ظهر آدم عليه السلام .

وأجيب بأنه مبني على كون الحياة مشروطة بالبنية كما هو مذهب الخصوم والبرهان قائم على بطلانه ، فيجوز أن يخلق الله الحياة في جوهر فرد[١]، وتلك الذرية المخرجة كانت كالذر وهو قريب من الجوهر ، وكون المجموع لا تحتويه عرصة الدنيا غير مسلم ، وإن اعتبر الإنسان عبارة عن النفس الناطقة وإنها جوهر غير متحيز ولا حال فيه ، لذا فلا يحتاج إلى الفضاء .

٣- لا فائدة في أخذ الميثاق لأنهم لا يصيرون بسببه مستحقين للثواب والعقاب وهم أدون حالاً من الأطفال[٢] ، والطفل لا يتوجه عليه التكليف فكيف يتوجه على الذر.

وأجيب بأن فائدة الأخذ غير منحصرة في الاستحقاق المذكور، بل يجوز أن يكون إظهار كمال القدرة لمن حضر من الملائكة وإقامة الحجة يوم القيامة وكفى بالملائكة شاهدين على هذا العهد ، وكونه أن ذلك أدون من الأطفال باطل، لأنها روح بشرية فلا يستهان بهم ، وإن كان يقصد عدم تكليفهم فهو قياس مع الفارق .

٤ - قال جل جلاله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[٣] وقوله جل جلاله ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾[٤].

وكون الذر ينافي هذه الخلقة، وأجيب إن الإنسان في هذه النشأة مخلوق عن ذلك، ولا يلزم منه أن يكون من تلك النشأة والله لا يعجزه شيء))[٥].

---

(١) الجوهر الفرد الجزء النهائي الذي لا يقبل التجزئة ، ينظر شرح المقاصد في علم الكلام للعلم الإمام : مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني توفي سنة : ٧٩٣ هـ ، الطبعة الأولى ، سنة الطبع ١٤٠٩ هـ . ١٩٨٩ م ، تحقيق وتعليق : د. عبد الرحمن عميرة ، ١٧٩/١ .

(٢) الذر لا ترى بالعين المجردة لذا فهو أقل من حالة الأطفال .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ١٢ .

(٤) سورة الطارق الآية : ٦ .

(٥) ينظر :مفاتيح الغيب ٤٠/١٥ ، وكذلك روح المعاني ١٠٧/٩ . ١٠٨ .

٥- ((قال الكعبي[١] : إن تلك الذرات إما أن يقال هي عين هؤلاء الناس أو غيرهم ، والقول الثاني باطل بالإجماع ، بقي القول الأول ، فنقول: إما أن يقال إنهم بقوا فُهماء عقلاء قادرين حال ما كانوا نطفة وعلقة ومضغة أو ما بقوا كذلك ، والأول باطل ببديهة العقل. يقتضي أن يقال الإنسان حصلت له الحياة أربع مرات: أولها وقت الميثاق، وثانيها في الدنيا، وثالثها في القبر ، ورابعها في القيامة ، وأنه حصل له الموت ثلاث مرات . موت بعد الحياة الحاصلة في الميثاق الأول ، وموت في الدنيا ، وموت في القبر، وهذا العدد مخالف للعدد المذكور في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾[٢] ورد بأن ذلك لا يعني خلقاً ثم إماتة بل إن الأرواح مخلوقة سلفا فأخذ الله ﷻ عليها العهد قبل اقترانها بأجسادها))[٣] .

٦ – الآية لم تذكر أن الله ﷻ أخذ من ظهر آدم ، إنما كان الأخذ من ظهور ذريته لقوله ﷻ ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل من ظهره .

وأجيب بأن حديث الرسول ﷺ دل على ذلك ، وإن كان المعتزلة لا يرون تفسير الآية بالحديث ، فهذا مخالف لإجماع العلماء . نعم يستدلون بالأحاديث التي تتفق مع أصولهم ، والتي لا تتفق مع أصولهم إما يؤولونها أو يردونها كونها من الآحاد ، وترك الآحاد من الآثار يؤدي إلى سد باب كبير من الفتوحات الغيبية ويحرم قائله كثيراً من المنح الإلهية ، وقد قال الشافعي[٤] إن الذين لقيناهم يثبتون خبر واحد عن واحد عن النبي ﷺ ويجعلونه سنة حُمِدَ من يتبعها وعِيبَ من خالفها.

---

(١) الكعبي : هو أبو القاسم احمد بن عبد الله الكعبي البلخي رئيس العتزلة المتوفى سنة ٣١٩هـ صاحب كتاب تجريد الجدل ، ينظر: كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، مصطفى ابن عبد الله القسطنطيني الحنفي (ت ١٠٦٧هـ) ، دار النشر : دار الكتب. ٣٤٥/١.

(٢) سورة غافر الآية : ١١.

(٣) مفاتيح الغيب : ٤٩/١٥ .

(٤) ينظر اختلاف الحديث ، محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي ، تحقيق : أحمد حيدر ، الطبعة الأولى ، دار النشر : مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . ١٤٠٥ هـ . ١٩٨٥ م ، (٤٧٥/١)، العلمية ـ بيروت، سنة النشر : ١٤١٣هـ. ١٩٩٢م ، ١/ ٣٤٥ سورة غافر الآية : ١١ .

٧- حكم على الذرية بالشرك وهذا لا يليق بأولاد آدم عليه السلام.

ورد بأنه لا يقصد بهم الذرية الصلبية لآدم عليه السلام إنما المتأخرين منهم .

٨- صُلْبُ آدم عليه السلام لا يتسع كل الذرية لصغره .

ورد بأن الأرواح لا تحتاج إلى مساحة واسعة لتحل فيها ، وهي من الغيب الذي لا يعلم أمره إلا الله جل جلاله ، وأن الذر إذا تحيز فلا يحتاج إلى مساحة كبيرة[١] ، وقد أثبت العلم الحديث أن العوامل الوراثية لملايين البشر لا يتجاوز حجمها السنمتر المكعب الواحد.

سادساً:- الراجح من الأقوال:

والذي نرجحه هو الرأي الثاني ، أي أن أخذ العهد كان من ظهر آدم عليه السلام ومن ظهور ذريته لأن الكتاب يدل دلالة صريحة على ذلك ولا داعي للتأويل ، ومما تقدم يمكننا أن نصل إلى بعض أمور :

الأول :إن آخذ العهد هو الله جل جلاله ، والمأخوذ منهم هم بنو آدم عليه السلام ، والمأخوذ هم الذرية ، وبذلك يتحد المأخوذ والمأخوذ منه ، فالمأخوذ عين المأخوذ منه إلا قليلاً ، وبنو آدم جميعاً كل واحد منهم مأخوذ من ظهر أبيه ، إلا ناس يؤخذون ولا يؤخذ منهم ، وهذا الذي لا يورث كونه لم يتزوج مثلاً أو هم ما كانوا آخر الزمان يموتون قبل أن يخرج من أصلابهم شيء ، وآدم مأخوذ منه الذرية وهو غير مأخوذ من أحد ، والمولود فيه من أبيه شيء ، فعموم البشر : حي من حي من حي ..... وهكذا ، فكل واحد منا فيه شيء من آدم عليه السلام ، وليس المعنى أن الكل من ظهر آدم عليه السلام ، لكننا نعلم أن مسألة البدء منه بالتناسل التكاثري وهذا مما لا خلاف فيه . وأن الله جل جلاله أخذ العهد على بني آدم بتوحيد الربوبية له جل جلاله ، أما كيف كان هذا المشهد وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ؟ وكيف خاطبهم ألست بربكم ؟ وكيف أجابوا بلى شهدنا ؟

فالجواب عليه أن كيفيات فعل الله سبحانه غيب كذاته ولا يملك الإدراك البشري أن يتصورها ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله إذ أن تصور الكيفية فرع

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٣٤/١٥ (من النقطة ٦-٨)

عن تصور الماهية ، وكل فعل ينسب لله سبحانه هو غيب مثل الذي يحكيه قوله ﷻ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾[١] وقوله ﷻ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٢] إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه لا مناص من التسليم بوقوعه دون محاولة إدراك كيفيته ، والله ﷻ ليس كمثله شيء فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله إذ أنه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء من المخلوقات ما دام أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[٣]، وحاول بعض العلماء تأويل كيفية المسح لكنه يبقى اجتهاداً لا يصل إلى الحقيقة كما قال الرازي (رحمه الله) : ((والمسح على ظهر آدم يحتمل أن يكون الماسح الملك الموكل على تصوير الأجنة وتخليقها وجمع موادها ، واسند الأمر إلى الله تعالى لأنه كما اسند التوفي إليه في قوله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[٤] . وقوله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[٥] ويحتمل أن يكون الماسح هو الله تعالى ويكون المسح من باب التمثيل))[٦] .

وغاية ما نفهمه أن الله جعلهم يتناسبون لفهم الخطاب والسؤال والجواب ، وتحقيق العهود والمواثيق ، فإن الله لما أودع فيهم الفهم والإدراك جاز الخطاب والجواب منهم على ما أراد الله تعالى ، وقد أفادت الآيات الكثيرة أن كل موجود يسبّح بحمد ربه قال ﷻ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[٧]، وأجاب عن غفلتنا عن ذلك بقوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[٨] ولو لم يكن التسبيح واقعيا لكان وجهاً لذلك

(١) سورة فصلت الآية :١١
(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .
(٣) سورة الشورى الاية :١١.
(٤) سورة الزمر الآية : ٤٢ .
(٥) سورة النحل الأية : ٢٨ .
(٦) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية ، ١٤٠/٩ ، وينظر شرح العقيدة الأصفهانية، : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض – ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم سعيداي ٢٢/١
(٧) سورة الأسراء الأية : ٤٤ .
(٨) سورة الأسراء الاية : ٤٤ .

الاستدراك ، وقد قال للسماء والأرض أتينا طوعا أو كرها ثم قالتا أتينا طائعين ، فقال ﷻ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1] وثبت تسبيح الحصا في كف الرسول ﷺ[2] ، كل ذلك وغيره مما استأثر الله ﷻ به في علم الغيب ولم يجعله واضحاً أمام البشر لأن عقولهم لا يمكنها إدراكه أو استيعابه.

الثاني : إن الله ﷻ خاطب الذر بعد أخذها من آبائها ، فهل فهمت الذرة خطابه تعالى ؟ وهل هي تفقه ما أخذ عليها من عهد ؟ وهل نستطيع أن نتصور كيفية الخطاب؟

وللإجابة على هذه الأسئلة نقول : إن لله تعالى وسائل متعددة في الخطاب فكل خلق من مخلوقاته له خطاب خاص ، خاطب الجبال والطير أن تؤوب مع داود عليه السلام ، قال الله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[3] فهل فهمنا نحن ذلك الخطاب ؟ وخاطب الله تعالى النحل وأوحى إليها، قال ﷻ : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[4] فهل فهمنا نحن الخطاب ؟ كما أنه تعالى ابلغنا أن كل شيء يسبح بحمده ونحن لا نفهم تسبيحهم ، قال ﷻ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[5] فإن كنا لم نفهم تلك الخطابات ، فكيف نفهم خطاب الله للذر ؟ وكيف نفهم أخذ العهد والميثاق عليهم ؟! ، ولو تفكرنا بهذا العهد لعلمنا أنه شيء طبيعي ، فإيمان الفطرة يقتضي الاعتراف بالربوبية لله تعالى ، ومهما وصل بالعبد درجة

(١) سورة فصلت الأية : ١١ .

(٢) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية ، ١٤٠/٩ ، وينظر شرح العقيدة الأصفهانية، : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض – ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم سعيداي ٢٢/١ .

(٣) سورة سبأ الآية : ١٠ .

(٤) سورة النحل الآية : ٦٨ .

(٥) سورة الإسراء الآية : ٤٤

الطغيان والعصيان ، إذا مسه ضر ولا يجد منه مفر ، ويحس بأن الخطر يحدق به، يلتجئ إلى الله وحده ولا يفكر بأحد سواه ، يقول ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾(١).

إنه الإيمان الفطري الذي أشار إليه الضحاك (رحمه الله) في دفن ابنه الذي بلغ من العمر ستة أيام . إنها الإعانة الإلهية للعبد على الشيطان فلا يترك الله ﷻ الإنسان وحده في الميدان وأمامه جند الشيطان ، إنما أخذ عليه الميثاق ليعينه في دنياه . والإنسان منا يحس بإعانة الرحمن في كثير من أموره الحياتية ، فعليه أن يجابه الشيطان وأن يكون أهلاً لتحمل المسؤولية .

وذكره الآلوسي (رحمه الله) في تفسيره لهذا المعنى فهو يذكر أن الميثاق هو نور روحاني يصيب النفس فيهديها وتستعد به لأول نداء يوم القيامة فيقول: ((إن الأرواح أول ما شنفت آذانها وعطرت أردانها بسماع وصف الربوبية كما يشعر بذلك بآية أخذ الميثاق ينادونه سبحانه بأول اسم قررهم به فأقروه وأخذ به عليهم العهد فاستقاموا ، إنه حبيبهم الأول ، ومفزعهم إذا أشكل الأمر وأعضل))(٢) .

فسمعت الذرات بلا حد ولا رسم ولا صفة ، فثبتت حلاوة السماع فيهم ، ويبقى هذا النداء كامناً في النفوس ، فإذا سمعوا نغمة طيبة وقولاً حسناً طارت هممهم إلى الأصل الذي سمعوه من ذلك النداء ، أولئك هم العارفون بالله تعالى ، المتحابون فيه ، المتزاورون لأجله ، الذاكرون له عن غيره ، فذلك المؤمن الحقيقي ، رقصت روحه ، وصحت عزيمته ، وكمل عقله ، وابيضت صحيفته ، وأخذ من السماع الحظ المكنون ، ونشر السر المطوي فيه ، لأن السماع موجود سره في طبع كل ذي روح يسمع ، وكل جنس يسمع بما يوافق طبعه ، ويفهم من السماع ما تنتهي إليه همته ، والطفل إذا سمع الحدو طرب ونام ، والجِمال إذا حداها الحادي سارت ونسيت ألم الثقل والنصب ، فكيف لا يؤثر بالإنسان الكائن الحي صاحب الشعور الوجدان ؟!

(١) سورة يونس الآية : 22

(٢) روح المعاني : 1/80 – 81

وما دام الخطاب موجهاً للأرواح فإنها تعي ذلك الخطاب ، كما أن النائم يتلقى رؤية يسر بها أو منام يساء به ، ولا علاقة للجسد في ذلك مع أن آثارها تجدها عليه ، ولا يمكننا أن نتوصل إلى ماهية هذا الغيب المكنون ، إنما نؤمن به كما ذكره الله ﷻ وأمرنا به فجعله من شروط الإيمان قال ﷻ ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾[١] إنه الخطاب من الجليل ﷻ لخلاصة ذرات البشر للوفاء بعهد التوحيد المطلق لله ﷻ ، وأنها ستفي به بالفطرة المستقرة في صميمها تستشعره بذاتها ، وتتصرف وفقه ما لم يطرأ عليها الخلل والفساد فتنحرف عن إدراكها الذاتي له وتدع للأهواء العارضة أن تسيرها بدلاً من أن تسير وفق قانونها الداخلي القويم ، هذا العهد بذاته هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها ميثاق مستودع في كيانها ، مودع في كل خلية حية فيها ، وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد ذي المشيئة الواحدة ، فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها ، ولا سبيل إلى أن يقول أحد إنه غفل عن كتاب الله الهادي إلى التوحيد ، أو يقول إنني خرجت إلى هذا الوجود فوجدت آبائي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيل لمعرفة التوحيد إنما ضل آبائي فضللت فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول ، فجاء هذا التعقيب على تلك الشهادة ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ.﴾ [٢] ولن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطى الميثاق يومئذ فمن وفي به نفعه الميثاق الأول ومن لم يوف به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرا نفعه الميثاق الأول أي مات على الفطرة فيدخله الله ﷻ الجنة ، والله أعلم .

(١) سورة البقرة الآية : ٣

(٢) سورة الأعراف الآيتان :١٧٢ – ١٧٣.

المبحث الثالث : العهد والفطرة

إن مشيئة الله ﷻ التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال ، وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى ، ومع إرسال الرسل بالبينات وهداية الطريق إذا ضل . جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جماء هل تحسون فيها من جدعاء)[١] .

وهذا الحديث اشتهر بين الناس على ظاهره ، أي أن كل إنسان يولد مسلماً ، لكن العلماء لهم فيه أقوال نأخذ قسماً منها :

1 ـ قال القرطبي (رحمه الله):((الحديث لا يعني العموم إنما المراد بالناس ، المؤمنين إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحدٌ ، وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [٢] ، وقال في الغلام الذي قتله العبد الصالح ﷺ طبع يوم طبع كافراً
ولو فطر الأطفال على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمورهم ما انتقلوا عنها أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون . ويستحيل في العقول أن يكون الطفل حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً ، لأن الله ﷻ أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئاً قال ﷻ ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾[٣]. استحال منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار)) [4] .

2 ـ ونقل ابن قتيبه (رحمه الله) عن ابن حزم (رحمه الله) هذا الحديث على منحى آخر فقال : ((فقوله (كل مولود يولد على الفطرة) أخذ الميثاق الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم وأشهدهم على أنفسهم فلست واجداً أحداً إلا وهو مقر

(١) صحيح البخاري :١/ ٤٥٦ بَاب اللَّحْدِ وَالشَّقِّ في الْقَبْرِ
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧٩ .
(٣) سورة النحل الآية : ٨٧
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢٦/١٤ – ٢٨ .

بأن له صانعاً ومدبراً ، وإن سماه بغير اسمه أو عبد شيئاً دونه ليقر به منه عند نفسه قال ﷻ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١]. فكل مولود يولد على هذا الإقرار وهي الحنفية التي وقعت في أول الخلق وجرت في فطر العقول))[٢].

3 . وقال ابن حجر(رحمه الله): ((إن المراد في تأويل الفطرة هو أن الكفر ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه بل إنما حصلت بسبب خارجي ، فان سلم من ذلك السبب استمر على الحق))[٣] .

والراجح : هو أن الحديث يعني أن هناك عهد من الله ﷻ على فطرة البشر أن توحده وأن حقيقة التوحيد مزروعة في هذه الفطرة ؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود ؛ فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها ، عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف ، فالأبوان لهما إعانة الابن على الهداية أو أن يجعلانه يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً ، فيحمل معنى الفطرة على الدين لأن معنى قول الرسول ﷺ (يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) تحمل معنى التدين ، ولا شك أن للأبوين دوراً كبيراً في اتخاذ الدين والمذهب بالنسبة للابن . ولكن الله سبحانه رحمة منه بعباده لما يعلمه من أن في استعدادهم أن يضلوا إذا أُضلوا وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف بإغواء شياطين الجن والإنس ؛ الذين يعتمدون على ما في التكوين البشري من نقط الضعف ، لذا قدر الله ﷻ ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا رحمة من الله ﷻ بعباده؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به ؛ حتى يرسل إليهم الرسل ويفصل لهم الآيات لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، ونرى مثيل ذلك وما أثر عن النبي ﷺ أنه كان يؤذن في أذن المولود اليمنى ويقيم الصلاة في أذنه اليسرى ليكون المفتاح الأول لسمع الطفل ، إنه عهد التوحيد ونداء الصلاة ليكون

(١) سورة الزخرف الآية : ٨٧ .

(٢) تأويل مختلف الحديث، عبد الله بن مسلم بن قتيبه أبو عمر، دار النشر : دار الجيل للنشر ـ بيروت ، سنة النشر : ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٢م ، ١ / ١٢٩

(٣) فتح الباري : ٣ / ٢٤٨ .

أول طارق للسمع . ولا يقولن أحد ماذا يفهم الطفل من الأذان والإقامة قد لا نصل إلى تأويل لذلك الفعل ، ولكن حسبنا أن نقول أن هذا الطفل سيتعلق قلبه بذبذبات هذا النداء العلوي الخالد ويكون ركيزة له في الاعتقاد الصحيح . وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال .

المبحث الرابع : تتمة الموضوع

أورد الطبري (رحمه الله) رأيين في تأويل تتمة الموضوع ا فهو يؤول قوله ﷻ : ﴿ شَهِدْنا ﴾ كما يأتي :

الأول : أن يكون الشاهد الأول هو الله ﷻ ثم الملائكة الكرام .

الثاني : أن يكون الناس شهوداً بعضهم على بعض .

((واختلف في قوله : ﴿شَهِدْنا﴾ فقال السديّ (رحمه الله): هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنه جلّ ثناؤه قال هو وملائكته إذ أقرّ بنو آدم بربوبيته حين قال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . وقال آخرون : ذلك خبر من الله عن بعض بني آدم لبعض ، حين أشهد الله بعضهم على بعض))[1] .

وقال الآلوسي (رحمه الله) هذا الكلام خاص ببني إسرائيل كونه جاء بين الآيات التي تتحدث عن فضائح بني إسرائيل وهو من جنس صرف الخطاب عن النبي ﷺ إليهم فهذا ((من تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله ﷺ إلى معاصريه من اليهود تشديدا في الإلزام أو إليهم وإلى متقدميهم بطريق التغليب))[2].

ونفهم من ذلك ومن النظر إلى القراءتين الصحيحتين حيث أن ((بعض المكيين والبصريين قرءوا : ﴿أن يقولوا﴾ بالياء، بمعنى : شهدنا لئلا يقولوا على وجه الخبر عن الغيب . وقرأ عامّة قرّاء أهل المدينة والكوفة : ﴿أن تَقُولوا﴾ بالتاء على وجه الخطاب من الشهود للمشهود عليهم . والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان صحيحتا المعنى متفقتا التأويل وإن اختلفت ألفاظهما ، لأن العرب تفعل ذلك في الحكاية،كما قال الله ﷻ :﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاس ولا تكتمونه﴾[3] و﴿ ليبيننه ﴾))[4]، فالقراءة الأولى تعني أن الله ﷻ بعد أن أخذ الميثاق على الذرية وأقروا به توجه بالخطاب للملائكة أن يشهدوا على هذا العهد فإن أنكرت الذرية ثبت عليهم بشهود

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١١٨/٩ .

(٢) روح المعاني : ١١٤/٩

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨٧.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٩/٩) ، كذلك ينظر الميسر في القراءات الأربع عشرة ، محمد فهد خاروف ، الطبعة الأولى – ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م ، دار الكلم الطيب / دمشق – بيروت ١٧٣/١ .

الملائكة ، والقراءة الثانية تعني أن الخطاب موجه إلى الذرية يشهد بعضهم على بعض حتى لا ينكروا يوم القيامة هذا المشهد .

أن الله ﷻ أخذ الميثاق على ذرية بني آدم فأقروا به ، وأشهد الله ﷻ الملائكة على ذلك فقالت الملائكته : شهدنا عليكم بإقراركم بأن الله ربكم كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : شهدنا عليكم أيها المقرّون بأن الله ربكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين ، إنا كنا لا نعلم ذلك وكنا في غفلة منه ، أو تقولوا: ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ اتبعنا منهاجهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنا ﴾ بإشراك من أشرك من آبائنا ، وإتباعنا منهاجهم على جهل منا بالحقّ ؟

ويعني بقوله : ﴿ بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ﴾ : بما فعل الذين أبطلوا في دعواهم إلهاً غير الله من آبائنا الأولين [1].

(1) ينظر تفسير القرآن العظيم ٢/٢٦٥.

الخاتمة والنتائج

الحمد لله في البدء والختام ، والصلاة والسلام على خير الأنام ، سيدنا محمد الغالق لباب الظلام ، وعلى آله وصحبه الكرام وبعد :

فإن الله ﷻ مسح ظهر آدم عليه السلام واستخرج ذريته الصلبية ، ومسح ظهور ذريته واستخراج ذرية أبنائهم من ظهورهم كما ذكر تعالى لأنا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه لكن لما كان الطبق الأول من صلبه ثم الثاني من صلب الأول ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى آدم عليه السلام لأنهم فرعه وهو أصلهم ، وفيه أيضا أنه ﷻ لما أضاف الذرية إلى آدم عليه السلام في الخبر احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم عليه السلام وأن الله تعالى اخذ ميثاقاً على بني آدم بإثبات الربوبية له تعالى وأقروا بذلك وهذا مما لا خلاف فيه ، أما الكيفية فقد اختلف العلماء فيها إلى الأقوال الآتية :

١ ـ استخرج الله ﷻ من ظهر آدم عليه السلام ذريته جميعاً فقسمهم قسمين ، قسم للجنة وبعملها يعملون ، وقسم للنار وبعملها يعملون ، وهذا ما ثبت بالأثر .

٢ ـ استخرج ولد آدم عليه السلام من أصلاب آبائهم وليس من صلب آدم عليه السلام أي أنه استخرج من ظهر كل أب من الآباء ذريته (الجيل الأول فقط) وأخذ العهد عليهم . قاله الطبري والبيضاوي والرازي وابن كثير وأغلب المفسرين (رحمهم الله).

٣ ـ استخرج الله ﷻ من ظهر آدم عليه السلام ذريته وأخذ العهد عليهم بأنه ربهم وخالقهم فأقروا وأخذ العهد عليهم ، قاله القرطبي والشوكاني وابن حجر العسقلاني وغيرهم(رحمهم الله).

٤. اخرج الأرواح وأخذ عليها العهد وألقمها الحجر الأسود ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٥. جمعهم الله ﷻ أرواحاً ثم صورهم وكلمهم وهذا رأي أُبي (رحمه الله).

٦ ـ يحتمل أن يكون الماسح على ظهر آدم هو الله ﷻ بهيئة لا يعرفها إلا الله ، أو الملك الموكل بتصوير الأجنة ، قاله الرازي (رحمه الله).

٧. أن يكون المسح بمعنى المساحة أي التقدير ، قاله الرازي والآلوسي (رحمها الله).
٨. عهد على الأرواح بالعهد والميثاق بهيئة معينة تفقه معنى العهد ، قاله الآلوسي (رحمه الله).
٩ . أنكر المعتزلة اخذ الميثاق وقالوا بأن الأحاديث من جملة الآحاد ، فلا يلزم ترك ظاهر الكتاب بها ، فظاهر الآية لا يدل على أخذ الميثاق ، وطعنوا في صحتها بمقدمات عقلية وفلسفية ، ولو وجد الميثاق وجب تذكره من قبل الذرية ، وردّ العلماء عليهم رداً جميلاً .

والآية مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله ﷺ وبيان عدم إفادة الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم اقتضى الحال إخراج نسمة كل واحد منهم إلى ظهر أبيه من غير تعرض لإخراج الأبناء الصليبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعاً وعدم بيان الميثاق في الخبر العمري ليس بياناً لعدمه ولا مستلزما له .

هذا ما تيسر من التقدير ، وتقدر من التيسير ، وشاء الله ﷻ أن يخرج هذا البحث إلى حيز الوجود ، فما كان فيه من صحيح وصواب فهو خير وفقنا الله إليه، وما كان من خطأ فهو من غير قصدنا ، وأسأل الله ﷻ أن يتجاوز عنا ويسامحنا ، وشعارنا في عملنا هو: (رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

1. **الأحاديث المختارة** ، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن احمد الحنبلي المقدسي ، تحقيق : عبد الملك بن عبد الله بن دهش، الطبعة الأولى ، دار النشر : مكتبة النهضة الحديثة ، مدينة النشر : مكة المكرمة ، سنة النشر : 1410 هـ

٢. **اختلاف الحديث** ، محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي ، تحقيق : أحمد حيدر ، الطبعة الأولى ، دار النشر : مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ 1405 هـ ـ 1985 م

3 . **تأويل مختلف الحديث** ، عبد الله بن مسلم بن قتيبه أبو عمر، دار النشر : دار الجيل للنشر . بيروت ، سنة النشر : 1393هـ . 1972م .

٤. **تاريخ بغداد**، تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت

٥ . **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور** ، محمد الطاهر ابن عاشور، الطبعة الأولى ، سنة الطبع : ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م ، مؤسسة التاريخ العربي . بيروت . لبنان .

٦ـ **تفسير البيضاوي** ، الإمام البيضاوي (ت 791هـ) ، تحقيق : عبد القادر عرفات العشا حسونة ، دار النشر : دار الفكر للنشر ـ بيروت ، سنة النشر : 1416هـ . 1996م .

7. **تفسير القرآن العظيم** ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء (ت 774هـ) ، دار النشر: دار الفكر . بيروت، سنة النشر : 1401هـ.

٨. **تهذيب التهذيب** ، تأليف : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، توفي 852هـ ، دار النشر : دار الفكر للنشر ـ بيروت ، سنة النشر : 1404هـ – 1984م . الطبعة الأولى

9 . **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر (ت 310هـ) ، دار النشر : دار الفكر ـ بيروت ، سنة النشر : 1405هـ .

10. **الجامع لأحكام القرآن** ، محمد بن احمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي أبو عبد الله (ت 671هـ) ، الطبعة الثانية ، دار النشر : دار الشعب . القاهرة .

11. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، محمود الآلوسي أبو الفضل (ت 1270هـ) ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي . بيروت.

١٢. **زاد المسير في علم التفسير** ، تأليف : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المتوفى سنة 597 هـ دار النشر :المكتب الإسلامي . بيروت ، سنة النشر : 1404 هـ ، الطبعة الثالثة .

١٣ . **سنن الترمذي** ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت 279 هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

14 ـ **شرح المقاصد في علم الكلام للعلم الإمام** : مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني توفي سنة : 793 هـ ، الطبعة الأولى ، سنة الطبع 1409 هـ . 1989 م ، تحقيق وتعليق : د. عبد الرحمن عميرة.

15 . **شرح العقيدة الأصفهانية**، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض – 1415، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم سعيداي

16 . **شرح العقيدة الطحاوية** ، ابن أبي العز الحنفي ، الطبعة الرابعة ، دار النشر : المكتب الإسلامي . بيروت ، سنة النشر : 1391هـ .

17 ـ **شرح النووي صحيح مسلم** ، تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – 1392، الطبعة: الطبعة الثانية

١٨ . **شعب الإيمان** ، أبو بكر احمد بن حسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول ، الطبعة الأولى ، دار النشر : دار الكتب العلمية . بيروت ، سنة النشر : ١٤٠٠هـ

19ـ صحيح البخاري ، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت 256هـ) ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، دار النشر : ابن كثير ـ اليمامة للنشر . بيروت ، سنة النشر : 1407هـ . 1987م ، الطبعة الثالثة .

20. طبقات الفقهاء، تأليف: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق، دار النشر: دار القلم – بيروت، تحقيق: خليل الميس

21 ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، احمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت 852هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ـ محب الدين الطبري ، دار النشر : دار المعرفة . بيروت ، سنة النشر : 1379هـ.

22. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت 1250هـ) ، دار النشر : دار الفكر . بيروت .

٢٣. في ظلال القرآن ، سيد قطب ، المطبعة الشرعية الحادية عشرة ، دار النشر : دار الشروق ، سنة الطبع : 1405هـ . 1985م .

٢٤. كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، مصطفى ابن عبد الله القسطنطيني الحنفي (ت 1067هـ) ، دار النشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت ، سنة النشر : 1413هـ . 1992م

25ـ لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت 711هـ) ، دار النشر : صادر بيروت .

26. المستدرك على الصحيحين محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، دار النشر : دار الكتب العلمية . بيروت ، سنة النشر : 1401هـ . 1990م

27 . مسند الإمام احمد ، احمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت 241هـ) ، دار النشر : مؤسسة قرطبة . مصر

٢٨. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)** ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المذهب فخرالدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، الطبعة الثالثة ، دار النشر : دار احياء التراث العربي . بيروت.

29 . **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار النشر: الجفان والجابي – قبرص – 1407 – 1987، الطبعة: الأولى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي

30 ـ **الميسر في القراءات الأربع عشرة** ، محمد فهد خاروف ، الطبعة الأولى ـ 1420هـ – 2000م ، دار الكلم الطيب / دمشق – بيروت.